نكث الأمومة

أقصوصة مصرية

للأديب نجيب محفوظ

عند ما أخذ قطار الصعيد يهدئ من سرعته كان نور الفجر الأزرق الحالم قد اكتسى بحلة فضية من ضوء الصباح المنير ، وقد فتحت السيدة روحية هانم عينيها مع بزوغ أول شعاع من أشعة الشمس ، ولبثت لحظة مستسلمة لتراخى النوم ، ثم اعتدلت فى جلستها وأدارت عينيها الزرقاوين الفاتنتين فى أنحاء الصالون حتى استقرتا على وجه الأستاذ عاصم الذى كان يغط فى نوم عميق . فلاحت فيهما نظرة حب وحنان ، وكان من الضرورى إيقاظه لدنو القطار من محطة مصر إلا أنها لم توقظه قبل أن تقوم إلى المرآة الصغيرة الموضوعة بين صورة الكرنك وأجاممنون فتسوى شعر رأسها وتمسح خديها وجيدها بالبودرة المعطرة ... وتنبه النائم على لمس أناملها ذات الأظافر الأهرامية الحمراء ... وكان أول ما مس إحساسه من عالم اليقظة رائحة أنفاسها الزكية وهى تطبع على شفتيه قبلة شهية ... وفتحت النافذة وأطلت منها برأسها الذهبى كأنها شمس تشرق من الأرض ، فرأت بناء المحطة يدنو من بعيد فالتفتت إلى الأستاذ وقالت وهى تتنهد:

« وآسفاه ... انتهت سفرتنا »

فقال لها وهو يتمطى :

« هذه نهاية كل رحلة .. أما الحب فلا نهاية له »

فقالت بصوت جعله الشوق والوجد كلحن من الموسيقى الخافتة :

«أين أسوان أين ؟.. أين خلوة الصحراء تحتوينا معاً ؟ أين جدران المعابد تستر علينا ؟ أين زورق النيل يجرى بنا على سطح الماء؟ أين أنا وأنت لا نفترق ونشهد معاً وجوه اليوم من الفجر والصباح فالضحى والأصيل ثم المساء ؟ ... واها .. »

فتنهد الشاب تنهدة هادئة لا كتنهدتها الحارة وقال :

« سنعود إلى أسوان فى الشتاء القادم . أما من الغد فالى عش غرامنا المعهود فى شارع سليمان باشا »

« هيهات أن تعوضنا هذه الساعات التى ننتهبها انتهاباً من ذلك الشهر السعيد الذى كنا فيه جسما واحداً وروحاً واحدة »

وحاول أن يجيبها بمثل حماسها ، ولكن خذلته نفسه الهادئة اللولة فقنع بقوله «صدقت يا عزيزتى» ثم قام إلى النافذة الأخرى ففتحها ، وكان القطار قد بلغ المحطة وأخذ يرسل صفيره المدوى فى جوفها العظيم ، فأرسلا بناظريهما إلى إفريز الاستقبال ، وكان مزدحماً بالجمهور . وسمعت الأستاذ يقول :

« ها هم أولاء ... زوجك وحياة ومدحت »

فقلقت عيناها بين الرؤوس المشرئبة حتى اطمأنتا إلى رأس حياة الذهبى ، فرق قلبها حناناً وتحولت عن النافذة وانطلقت تعدو خارجة والأستاذ فى أثرها ، وعلى الأفريز هرع إليها مدحت وحياة وهما يصيحان : «ماما» فتعانقوا عناقاً حاراً ، ولما تخلصت منهما رأت زوجها الشيخ وهو فى عباءته الفاخرة ، وطربوشه مائل إلى الخلف يبدى عن

شعره الخفيف الأبيض لجمدت عيناها وتقدمت إليه ومدت يدها فسلم عليها واجماً ووضع يده أيضاً في يد الأستاذ عاصم ... وساروا جميعاً إلى الخارج، الزوج في المقدمة وخلفه الزوجة بين مدحت وحياة ومن وراء الجميع الأستاذ ... واستقلوا السيارة التي انطلقت بهم في طريق الزمالك ...

وجلس الزوج وزوجه وحياة في ناحية وجلس في الناحية المقابلة الأستاذ ومدحت ، واستطاع عاصم أن يرى حياة عن كثب لأول مرة إذ أنها لم تكن تقابله في زياراته المتكررة لوالديها ، فعجب للشبه العظيم الذي بين الأم وابنتها فلم يكن يفارق بينهما إلا ما يفارق بين نضارة الشباب الأولى ونضوج الأنوثة الكاملة ، فكانت الفتاة كالياسمينة العبقة في الغصن ، وأما الأم فكالوردة الناضرة في الزهرية ...

وظلوا صامتين جميعاً حتى قال الزوج :

— كيف كانت الرحلة ؟ لعل صحتك تحسنت يا هانم ؟

فأحنت المرأة رأسها وتمتمت « الحمد لله » وقال الأستاذ :

— قل أن تغيب الشمس في أسوان وهي أنجع دواء للدائم ...

فابتسم الرجل عن أسنان ذهبية صناعية وقال

— يسرني أن أسمع هذا ، وعسى أن تسرا بدوركما لأنبائنا ، فهنئنا حياة بخطوبتها القريبة

واحمر وجه الفتاة وخفضت عينيها حياء ، والتمعت عينا الأم وبدا عليها الاهتمام ورددت نظرها بين حياة وزوجها وسألت بلهفة ودهشة :

— هل تمت هذه الخطوبة ؟

فقال الرجل :

— لا يجوز أن تتم خطوبة فتاة في غياب أمها ... ولكنها ستتم قريباً بإذن الله

ونظر الأستاذ إلى الفتاة وقال مبتسماً : « مبروك »

أما الأم فسألت :

— من هو ؟ وأجابها الرجل :

— طلعت، ابن شريكي

وسأل المحامي :

— هل هو موظف ؟ فقال الرجل بزهو :

— نعم ... وكيل نيابة

وأطبقت زوجه هانم شفتيها فلم تفه بكلمة أخرى ، واستسلمت لأفكار غامضة فغابت عن الحاضرين ، وانتهت السيارة إلى الفيلا ودخلوا جميعاً ومعهم الأستاذ عاصم

ولكنه استأذن بعد قليل وانصرف إلى بيته القريب

* * *

كان السيد محمد بك طلبة من كبار تجار الشاي المعروفين بمصر وقد ربح من تجارته ثروة عظيمة تقدر بمئات الألوف من الجنيهات؛ وكان في أخلاقه صورة من رجال طائفته الناجحين في حسن التدبير وعلو الهمة والحرص ؛ وبالرغم مما تحفل به حياته من التجارب والمخاطرات، وبالرغم مما صادفه فيها من ويلات المحن وفرص النجاح ، فإنه ما يزال يعد زواجه أخطر حادث في حياته ، وهذا هو اعتقاده الدفين وإن لم يصرح به ؛ وقد وقع هذا الحادث الخطير منذ عشرين عاماً — وهو في الخامسة والأربعين — إذ كان يقوم بإحدى رحلاته التجارية بسوريا ، وقد التقى هناك بأسرة زوجه

وتعرف إلى والديها ، وكان الأب سوريًا والأم أمريكية . ورأى ابنتهما الشابة الفاتنة ساعة فوقع فى حبها وجن بها جنوناً وتحركت فى أعماقه غريزته التجارية غريزة الامتلاك فخطبها إلى والديها ولم يستدر ذلك الشهر حتى تم زواجه منها ، وعاد إلى مصر « بأعظم ربح وأجمل امرأة فى الوجود » كما قال لنفسه حينذاك ...

وبدأت الحياة الزوجية بنجاح لا بأس به ، وأثمرت على مر الأيام طفلين جميلين مدحت وحياة . فبشر مقدمهما الأسرة بداوم السعادة والعشرة ... ودارت السنون دورة سريعة فوجد البك أنه أخذ يجتاز الحلقة السابعة ، ويقنع من الدنيا بمشاهدة مدحت وحياة ، ويكتفى من الحب بتذكر أحلامه المنطوية ... وأما المرأة فألفت نفسها فى مكتمل الأنوثة ونضوج الشباب فلم تجمل نفسها القناعة من الدنيا بالأبناء والأحلام ، إذ كان شبابها عنيداً جباراً دائب الثورة على الزمن ... فتصدع ائتلاف الزوجين ، وعجزت شيخوخة الرجل عن كبح هذه الحيوية الثائرة فانكمشت أمام سيلها العارم وخلت لها المنحدر وانزوت مطمونة باليأس مذعنة بالتسليم

واتفق أن كان الأستاذ عاصم المحامى — صديق الزوج وجاره — السبب المباشر فى انفجار هذه الثورة الحيوية العنيفة ، وقد تحيرت (صالونات) الزمالك فى تحديد علاقته بروحية هانم ، فمن قائلة إن هذا المحامى الجميل ليس إلا صديقاً للأسرة ، ومن هامسة بأنه عشيق الزوجة ومتغفل الزوج ، ومن مؤكدة أنه عشيق الزوجة على علم وتسليم أو — على الأقل — تغاض من الزوج . وظل كل فريق على رأيه حتى ذاع خبر تلك الرحلة الشتوية إلى أسوان التى قيل فى تعليلها إن الأطباء نصحوا لهانم بانتجاع الصحة فى مصر العليا ، وأن الزوج — الذى تمنعه أعماله فى مثل هذا الوقت من السفر — عهد بالزوجة إلى صديقه المخلص المحامى الذى يسافر عادة فى يناير كل عام إلى أسوان ... هنالك قطع الشك باليقين واتفقت الآراء ...

وكانت روحية هانم لا تهتم بشىء اهتمامها بشبابها ، فكانت لا تنى عن العناية به والتفكير فيه حتى غدا ذلك وسواساً ومرضاً ينغصان حياتها بالمخاوف والأوهام ، وكانت كلما تقدم بها العمر يوماً تزايدت وساوسها واشتدت مخاوفها ، ذلك أنها كانت تحس فى أعماقها ببلوغ قمة الشباب التى لا يعقبها إلا الانحدار ، وكانت تعلم أن شبابها هو سعادتها لأنها بدونه لا تستطيع أن تجذب اليها الرجل الذى تحبه والذى تعلم — مع الألم الشديد — أنها تكبره بما لا يقل عن عشرة أعوام ...

ولطالما تذكر ما قالت مرة امرأة — تعلن لها الود وتكتم العداوة — فى مجلس لأخرى وهى تعنيها بالذات من أن النساء اللاتى يحافظن على شبابهن بعد فوات عهده يهرمن مرة واحدة بلا تدرج ... واها ... كم سخرت من رأى هذه المرأة وكم أرجعته إلى الحسد التى تحمله لها ، ولكن لاسخريتها ولا تظاهرها بالاستهانة أفادا شيئاً فى مغالبة الذعر الذى استولى عليها والرجفة التى استحوذت على أعصابها ... فغدت كالمجنونة يخفق قلبها جزعاً وإشفاقاً كلما طرقت أذنيها دقات الساعة

وجعلها ذلك فى حيرة بين حبها لمدحت وحياة وبين الخوف منهما ، فهما بلا شك لذة الأمومة التى تخفق فى صدرها ولكنهما آيتان على كذب شبابها ،

أما حياة فقد بلغت السادسة عشرة من عمرها وهي تخطو إلى النضوج بخطى سريعة تدل عليها معاني العينين ونهوض الثديين ، وأما مدحت فتعذيبه لها أشد إذ أن هذا الشاب ـ الذي لم يجاوز الثامنة عشرة ينمو نمواً خطيراً فهو فارع الطول جاهر الفتوة عريض المنكبين ، والأدهى من هـذا كله غرامه بشاربه ومطاوعة الشارب له ، فالشاب يحب الرجولة ويستزيد منها حب أمه للشباب واستزادتها منه ... وقد كانت حريصة على استصحابه كلما خرجت حتى قالت لها مرة امرأة من صاحباتها : « ما أحرى الذي يراكما بأن يقول ما أسعدهما من زوجين ! » ولم تدر ما إذا كانت المرأة تثني على شبابها أو تغمزه وعلى كل حال لم تستصحب فتاها بعد ذلك أبداً ...

على أنه لاح في أفقها الآن ما يستخف بجميع همومها السابقة ، إذ ما مدحت وما شاربه إلى زواج حياة المنتظر ؟ !

لقد بغتها الخبر ، وكانت البغتة من الشدة بحيث لم تدع لها فرصة للتدبر ولا للتفكير ولا حتى للتظاهر بالفرح أمام ابنتها إذ هما بالسيارة ... فلما ذهبوا إلى الفيلا خلت إلى نفسها بحجرتها معتذرة بتعب السفر ، وفي عزلتها عاودت التفكير في هدوء وإمعان فتوالت عليها الفروض والتصورات ، فهي لا تشك في أنه لولا الحياء لغنت حياة فرحاً وسروراً ، وأي فتاة لا تفرح للزواج ؟ وخاصة إذا كان الشاب في عنفوان شبابه وجيهاً في بحبوحة من الغنى والجاه سيداً في وظيفة تتيه على جميع الوظائف فلعلها باتت تغرد في قلبها أطيار الحب وتحلق في جوها الطاهر أحلامه العذبة ، فهي جد سعيدة بحاضرها ، جد آملة في مستقبلها ، ولا شك أنها تنتظر الآن أن تستعيد أمها راحتها من وعثاء السفر وأن تذهب إليها لتطبع على خدها الوردي قبلة التهنئة فتعلن بها رضاها وموافقتها فتتم الخطوبة وتكمل السعادة

ولكنها إذا فعلت فستغدو الابنة زوجة وتمسي أمّا فتسمع عن قريب من يناديها بقوله : « جدتي » جدتي ! » لقد نطقت بهذه الكلمة الشنعاء فدوت في أذنيها دوي التصويت والنواح فارتج لها جسمها البض وخفق لهولها قلبها العاشق ... وأحست ببرودة الخوف تسري في أعصابها سريان الجفاف في الغصن الرطيب ... وخيل إليها الوهم أنها تجلس إلى مقعد وثير وإلى جانبها ابنتها وعلى حجرها غلام وكأنها تسمعه بأذنيها يهتف بها : « يا جدتي » ورأت نفسها وقد ذوى جمالها وتغضن جبينها وغارت عيناها ورق خدها وابيض شعرها ... فانتفضت واقفة وكتمت صرخة رعب كادت تفلت من شفتيها ، وهزت رأسها بعنف لتطرد عن خيالها الأطياف المرعبة ، حتى إذا عاودها اطمئنانها صاحت « أبداً ... أبداً ... لن يكون هذا » ولبثت ملازمة لحجرتها غير عابئة بما عسى أن يحدثه غيابها في نفس ابنتها العزيزة ، حتى ثقل الأمر على البك فاستأذن عليها ودخل ، وجلس قبالتها وجعل يرمقها بعينيه الحادتين وهو يرجو أن تفاتحه بالحديث ، ولما لم يدع له إصرارها أملا قال :

— أرجو أن تكون أسوان قد شفت أعصابك

وأغضبها قوله ، وظنت أنه يتهكم عليها فنظرت إليه نظرة حمراء ، ولما شاهدت عينيه الحادتين وقر في نفسها أنه هو الذي سعى إلى هذه الخطوبة ، وأنه سعى إليها تأديباً لها وانتقاماً منها فهو أعرف الناس بها وأعرفهم — على وجه الخصوص — بما يسرها

وما يسوؤها ، واشتد بها — عند ذاك — الغضب فعضت على شفتها السفلى وأهملت الرد عليه ، فقال كالدهش :

— مالك ؟ لست كعادتك … والأعجب من هذا أنك لم تفرحي لما بشرتك به !

فاهتاجها الغيظ وقالت محنقة غاضبة :

— لن تتم هذه الخطوبة …

فبدا على وجه البك الانزعاج وقال :

— ماذا تقولين يا هانم ؟

وأجابته بصوت صارم :

— أقول إنه لن تتم هذه الخطوبة …

— كيف ؟ … ولم ؟ …

— إن (حياة) ما زالت صغيرة السن

— ولكنها بلغت سن الزواج القانونية

— ماذا يفيد القانون إذا كان الزواج المبكر يؤذي صحتها ؟

— لقد تزوجت يا هانم في مثل سنها ومع هذا فإن كل من يراك يشهد لك بالصحة والنضارة …

فضربت الأرض بقدميها وقالت محنقة مغيظة

— أنا دائماً أشكو من أعصابي …

فضيق عينيه ورفع حاجبيه وقال يتهكم :

— ربما كان ذلك لعلة غير الزواج …

فتملكها الغضب واشتد بهـا الانفعال وقالت بصوت متهدج :

— باختصار لن تتم هذه الخطوبة …

ولكن الزوج صر على أسنانه الصناعية وقال :

— لقد أطلقت لك الحبل على غاربه وملكتك حريتك الكاملة وقلت لك منـذ عامين « أنت وشأنك » … ولكني لم أتنازل عن حقوقي كوالد ولا أفكر في التنازل عنها ، وإني لأشفق من أن تضيع على ابنتي مثل هذه الفرصة الذهبية، ولذا فإني أعلنك — وإني أعني ما أقول — بأني سأعقد هذه الخطوبة …

فقامت غاضبة وأشارت إليه بيد مرتجفة وصاحت :

— وأنا أؤكد لك بأنها لن تتم …

فهز الرجل كتفيه استهانة وغادر المكان وهو يقول « سنرى »

وصبرت الهانم حتى عاودها شيء من هدوئها ثم دعت إليها ابنتها ، وحدثتها حديثاً طويلاً عن حبها لها وحدبها عليها وتوخيها ما ينفعها وإشفاقها مما يضرها ، ثم خلصت إلى مادعتها — في الحقيقة — من أجله فأعلنتها بأنها لا توافق على زواجها وأنها ترغب في تأجيله بضع سنين خوفاً على صحتها، ورجتها رجاء حاراً أن ترفض يد ذلك الشاب وألا تذعن لإرادة والدها …

وصمتت الفتاة صمتاً بليغاً ، ولاذت به من الرفض أو القبول ، وعبثاً حاولت المرأة أن تخرجها عن صمتها ولكنها فهمت منه ، ومما طالعت في وجهها من الحزن والاستياء ما أشفى بها على اليأس والقنوط …

ولبثت الفتاة في حضرتها ما لبثت ثم غادرت الغرفة ولم تنفرج شفتاها عن غير التحيتين … تحية اللقاء التي نطقت بها في مسرة وفرح، وتحية الوداع التي قالتها في صوت خافت بارد … وجن جنون الأم وازدادت تشبثاً وعناداً ، ووقفت من الزواج موقف المقاطعة والتحدي . فلما جاء الشاب الخطيب لزيارتها أبت أن تقابله كما رفضت مقابلة أهله من بعد واضطر البك إلى انتحال الاعذار الكاذبة لهـا ،

وبذل الرجل مافى وسعه لاقناعها بالتحول عن عنادها وتوسل إليها باسم ابنتها ، ولكنها ركبت رأسها وأبت أن تصغي إليه حتى انفجر مرجل الرجل وأقدم على الافضاء بالحقيقة إلى شريكه — والد الخطيبة — وشكا إليه قسوة امرأته التى تضحى بسعادة ابنتها فى سبيل شبابها الكاذب ... وطلب إليه أن يعاونه على إتمام الزواج — رغم إرادة الأم — إنقاذاً للفتاة من أنانية أمها المتوحشة ...

وذاعت هذه الكلمة التى قيلت سراً فى جميع الأوساط الراقية ، وتحدثت بها (الصالونات) حتى بلغت أذنى الأستاذ عاصم المحامي الذى يلغها بدوره إلى روحية هانم نفسها ولكن لم يكن هذا — ولا ما أصبح يبديه مدحت وحياة من الاستياء والنفور إلا ليزيدها عناداً وإصراراً ... ووجدت المرأة أن كل ما قيل وذاع لم يغن فتيلاً فى عرقلة الساعين إلى إتمام الزواج ، وكانت ترى فى نجاح مسعاهم القضاء الأخير على سعادتها وشبابها وغرامها ، فانبرت للدفاع عن نفسها دفاع اليائس المستميت واهتدت — فى قنوطها — إلى فكرة جهنمية شريرة لا تخطر على قلب أم أبداً ، وسارعت إلى تنفيذها بقلب أعماه الخوف والجنون عن البصر بالعواقب ، فقصدت يوماً إلى عشيقها وطلبت إليه أن يقنع ابنتها بالعدول عن الزواج ، وقد دهش الرجل وحق له أن يدهش وقال لها ...

« وما أنا ولهذا ؟ ... ثم إنه لم تسبق لى معرفة وثيقة بالآنسة حياة فلا أدرى والحالة هذه كيف يجوز لي أن أحادثها فيما هو من صميم شئونها الخاصة ؟ ... »

ولكن المرأة استهانت باعتراضاته وكذبت عليه فقالت :

« حقيقة أنك لم تسبق لك بها معرفة وثيقة كما تقول ولكنها تعلم أنك صديق والديها ، وقد سمعت فى بعض المجالس ثناء كبيراً على نبوغك في المحاماة فهى لاشك تقدر رأيك حق قدره وتنزله من نفسها منزلة سامية ... »

فتورد وجه الشاب وذكر وجه الفتاة الجميل الذى سعد برؤيته ساعة فى السيارة صباح العودة من أسوان ، فلم يستطع أن يرفض ولكنه قال متسائلا :

« فكيف لي بمقابلتها على انفراد لأحادثها فى هذا الشأن الخطير ؟ وإذا قابلتها فكيف أفاتحها به ؟ »

فتنهدت المرأة ارتياحاً وقالت :

لقد دبرت كل شيء ، سأستصحبها يوم الأحد القادم لشراء بعض الحاجات ، وعليك أن تقابلنا — مصادفة طبعاً — فى شارع سليمان باشا الساعة الخامسة مساء ، وتقترح علينا التنزه قليلاً على جسر قصر النيل فأتركها معك واعدة بأن ألحق بكما بعد دقائق ، وتنتظرانني ساعة على الأكثر فان لم أعد تأت بها إلى شيكوريل حيث تجدانني ، وفى أثناء ذلك تستطيع أن تطرق الموضوع بلباقة المحامى وتفضى إليها برأيك فى الزواج المبكر ... ما رأيك الآن ؟ »

وقبل الشاب بسرور خفى ، فتركته المرأة وذهبت إلى الفيلا على عجل ، وأغلقت على نفسها حجرتها وأحضرت ورقة وقلماً وكتبت ما يلى بيد مضطربة وبخط جهدت أن تخرج به عن مألوف خطها :

سيدى الأستاذ ...

أنت شارع فى الزواج من كريمة محمد بك طلبة ولكن ينبغى قبل ذلك أن تذهب بنفسك كل

يوم إلى جسر قصر النيـل الساعة الخامسة مساء وخصوصاً أيام الآحاد »

ثم كتبت على الغلاف عنوان الخطيب ووضعت الخطاب فيـه ، وترددت لحظة رهيبة ثم نادت خادماً وأمرته بوضع الخطاب في صندوق البريد ...

وجاء يوم الأحد وخرجت الأم وابنتها وحدثت المقابلة مع الأستاذ ، وتم لها ما أرادت من تركها معه ، وذهبت بمفردها إلى شيكوريل وابتاعت حاجاتها ولبثت تنتظر حتى حضر الأستاذ وحياة وقد اعتذرت إليهما قائلة :

« أوه ... لقد تأخرت عليكما لأن المحل مزدحم كما تريان . لابأس ، أظن أنه ينبغي أن نذهب الآن. نستودعك الله يا أستاذ ... »

وفي الطريق لازمت المرأة الصمت وقد انتظرت طويلاً أن تفاتحها الفتاة بالكلام ولكنها ظلت واجمة كأنها تجهل اللغة التي تتكلمها أمها، واختلست المرأة منها نظرة فرأتها جامدة باردة لا تعير وجودها أدنى اهتمام فانقبض صدرها وتذكرت — آسفة حزينة — كيف كانت في حضرتها لا تمل الحديث والضحك والمداعبة ، وضاق صدرها بصمت الفتاة فقالت تحملها على الكلام :

— كيف كان التنزه...؟ وماذا قال لك الأستاذ؟

فأجابتها بإيجاز قائلة :

— تحدثنا أحاديث عامة تافهة لا تستحق الاعادة

— وما رأيك فيه ؟

— هو جنتلمان

وكانت ترجو أن تعرف من إجابة الفتاة الأثر الذي تركه حديث الأستاذ في نفسها ولكنها لم تستطع أن تدرك شيئاً ...

ولما خلت إلى نفسها ذلك المساء تنهدت وقالت « إن (حياة) لا تحاول إخفاء نفورها مني »

نفورها ! وما النفور إلى جانب ما صنعت هي ؟ أي فعلة شنعاء ! أي إثم منكر ! إنها تعرف نفسها أكثر مما يعرف الناس ، وهي تعلم أنها سيئة التصرف ، كثيرة الأخطاء متسرعة هوجاء، ولكن لم يسبق لها أن أخطأت خطأ منكراً كهذا الخطأ. ومالها تسميه خطأ ؟ ولماذا لا تسميه باسمه الحقيق فتقول إثم وجريمة ؟ فهو جريمة شنعاء لأنه ليس أقل من محاولة تلويث شرف ابنتها والقضاء على مستقبلها في سبيل شهواتها هي . يا للفظاعـة ! لو أمكن فقط أن يبقى هذا سراً مكتوماً، ولكنه لن يبقى كذلك لأنها في الحقيقة وإن كانت فكرت تفكير شيطان إلا أنها دبرت تدبير أطفال؛ فالرسالة التي كتبت قد تكفل لها فسخ الخطوبة، ولكن من يضمن لها ألا يتصل خبرها بزوجها ؟ ومن يضمن لها ألا يسأل الرجل ابنته عما جاء فيها ؟ وإذا صارحت الفتاة أباها بأنها هي — أي أمها — التي تركتها مع المحامي ذلك اليوم فما عسى أن يحدس الرجل ؟

أواه ! قد لا تكترث لغضب زوجها ولكنها على وشك أن تفقد محبة ابنتها إلى الأبد ، بل ابنها وابنتها معاً لأنه لا مدحت ولا أي ابن في الوجود يستطيع أن يبر بمثل هذه الأمومة المتوحشة ، وأحست عندئذ بقشعريرة تسرى في جسدها واستولى عليها ذعر لم تشعر بمثله من قبل وباتت فريسة الآلام والمخاوف ...

ولأول مرة منذ أن سمعت بنبأ خطوبة حياة اتجه تفكيرها نحو الخير فودت لو تستطيع أن تكفر

عن خطيئتها ببذل التضحية الغالية وظلت تفكر صادقة مخلصة حتى قطعت عليها تفكيرها الحوادث.

فعند أصيل يوم من الأيام رأت المرأة ابنتها ترتدى معطفها وتتأهب للخروج فسألتها برقة : « إلى أين؟ » وأجابت الفتاة قائلة : « إلى السينما » فسألتها بتعجب « بمفردك ؟ » فأجابتها ببرود قائلة : « مع الأستاذ عاصم »

وأصاب الجواب منها مقتلا فاستولى عليها ذهول شديد وقالت دهشة :

« ولكنك لم تستأذنى أحداً ؟ »

فقالت الفتاة بشىء من الجفاء :

« استأذنت بابا وأذن لى »

« وهل طلب الأستاذ البك أن تذهبى معه إلى السينما ؟ »

« نعم »

« متى ... وأين ؟ »

« على جسر قصر النيل ذلك اليوم ... »

وغشيت عينيها سحابة ظلماء فجمدت فى مكانها لا ترى شيئاً . ولما أفاقت كانت حياة قد غادرت البيت ...

وتيقظت غريزتها مرة أخرى ، فطغت على عواطف الخير التى تحركت فى قلبها منذ حين قليل وخنقتها كما يخنق الماء الأجاج الورد اليانع فذهبت تواً إلى زوجها وقالت له غاضبة :

— لم أذنت لحياة بالذهاب مع الأستاذ ؟

فقال الرجل بلهجة تهكمية :

— ولم لا ؟ أليس هو الصديق الصدوق لأمها وأبيها ؟

فاهتاجها الغضب لتهكمه وقالت وهى تنظر إلى وجهه نظرة غيظ وكراهية

— إنى أعجب من تصرفك هـذا ، أيجوز أن تأذن لها باصطحاب الأستاذ وأنت تسعى إلى تزويجها من رجل آخر ؟

فهز الرجل كتفيه وقال

— فسخ الرجل الآخر خطوبته

فخفق قلبها واصفر وجهها وتساءلت : ترى هل علم شيئاً عن الرسالة ؟ واستطرد الرجل قائلا

— عليك تقع تبعـة ذلك يا هانم فرفضك

— وما ذاع عنه — زهد الشاب فى الفتاة

ترى هل اكتفى الشاب بالانسحاب دون أن يطلع زوجها على الخطاب ؟ ليت ذلك يكون !!

وعاد زوجها يقول بقسوة لم يستطع إخفاءها

— وقد أخبرتنى حياة بأنك تركتها مع الأستاذ عاصم ساعة فى قصر النيل فظننت أنك تفضلينه على الشاب الآخر فلما استأذنتنى فى الذهاب معه أذنت لها وقلت لنفسى لا على من هذا، فعاصم شاب جميل ونابغ فى فنه ...

عند ذاك لم تستطع صبراً فولت مدبرة تترنح فى مشيتها كالمصاب فى مقتل ...

وتذكرت المثـل القائل « على الباغى تدور الدوائر » فقد فعلت ما فعلت وارتكبت ما ارتكبت وفقدت ما فقدت لتحافظ على حب الرجل وها هى ذى توشك أن تفقد — بسعاها هى دون غيرها — الرجل وحبه

يالله من ألم ساخر ! ليتها أبقت على الخطيب الأول أو ليتها تستطيع أن تسترده بأى ثمن

ولم تنم من ليلتها ساعة واحدة . وعند الصباح

حدثت المحامى بالتليفون وقالت كما تعودت أن تقول دائماً « مساء اليوم فى عشنا ... هه » فأجابها بغير ماتعودت أن يجيبها به قال «آسف جداً يا عزيزتى .. أنامشغول جداً هذه الأيام »

وقد صدمها اعتذاره صدمة شديدة وخيب آمالها ولم يفتها مغزى قوله «هذه الأيام» ولكنها لم ترض بالهزيمة فقالت بسخرية مريرة « ومع هذا فأعمالك الكثيرة لا تمنعك من الذهاب إلى السينما ؟» ماذا يستطيع أن يقول ؟ قال إنه بالأمس فقط كان لديه متسع من الوقت أما الآن فلا ...!

ورأت أنه لا يكلف نفسه حتى الاعتذار المقبول ولِمَ يكلف نفسه ؟ إنما يهتم بانتحال الأعذار من يهمه شخص المعتذر إليه ... وقد غدت عنده شيئاً رخيصاً أو لا شيء مطلقاً . أواه ! أهكذا تتقلب القلوب ؟ أهكذا ينسى الانسان ؟ أمن الممكن أن يضحى حب كجبهما ذكرى وحلماً فى لحظة سريعة؟ ألا من تدرج ؟ ألا من رحمة ؟

ولم تنقطع منذ ذلك اليوم المقابلات بين حياة والأستاذ عاصم وشاهدتهما معاً متنزهات القاهرة وخلواتها وملاهيها حتى توقعت الأم يوماً بعد يوم أن يتقدم الشاب لطلب يد الفتاة ، ولكنه كان أحزم من أن يرتكب مثل هذه الهفوة لأنه كان خبيراً بأخلاق روحية هانم عليا بطباعها وعنادها وغرامها به فرسم فى عقله خطة محكمة وعزم على تنفيذها بارادة لا يثنيه عنها شيء . ولبثت روحية هانم فى حيرة من أمرها تعانى أشد الآلام النفسية والقلبية ، وتأسى بكراهية ابنتها لها وتحديها لعواطفها ، وتتمزق إرادتها نهب الأمومة المحتضرة والأهواء العنيفة ، حتى كان مساء لا ينسى إذ دخل عليها زوجها يهز خطاباً فى يده ثم يرميه فى حجرها وهو يقول بلهجة الغاضب :

« اقرأى وانظرى ... أى جرأة ... »

فتناولت الكتاب بقلب مذعور متطير وقلقت عيناها بين الأسطر الآتية :

سيدي المبجل

بصلك هذا الكتاب ونحن نستقل القطار الذاهب إلى بور سعيد حيث نبحر إلى أوربا أنا وعروسى — كريمتكم — لقضاء شهر العسل وإنى أقر آسفاً بأنه لم تجر العادة بأن تعقد الزيجات على هذا المثال الغريب ، ولكن الظروف الدقيقة التى لا تجهلونها لم تدع لى فرصة للاختيار ، وإنى كبير الأمل فى أن تقدروا سلوكى تقديراً عادلاً ، ولست أقل أملاً فى نيل عفوكم القريب .

ودمتم للمخلص

عاصم عادل

زاغت عيناها وحجبت غاشية الغضب الكلمات عن بصرها فظلت منكسة الرأس لا ترى شيئاً ولا تعى شيئاً والقنوط يتسرب إلى قلبها كالغاز السام ، ولم تحاول قط أن تقاوم نفسها المنهارة أمام زوجها كأنها نسيت وجوده نسياناً تاماً ، وكان الشيخ يحدجها بنظرة قاسية متشفية ، فلما وجدها تتهدم وتضمحل ولاها ظهره وذهب

ولبثت فى غيبوبة الحزن حيناً طويلا ثم رفعت رأسها الثقيل فوقع بصرها على صورتها فى المرآة فارتاعت وجفلت لأنه خيل إليها أنها ترى مجالها يذوى وينضب وتغشاه سيما الهرم ...

نجيب محفوظ